رسالة

من جندي فرنسي في الجزائر إلى أمه في مرسيليا

بقلم عبد الله يونس

أمي :

هل شممت رائحة الدم ؟ ربما ، ولكن ليس بهذه الغزارة التي نعرفها هنا . إن منظر الدم عندكم شيء مرعب ، ولكنه هنا شيء عادي تماماً ولازم تماماً .. كموسيقى التانغو الحالمة التي تنبعث باستمرار من مقهى مسيو (لانسيه) البحري !

لا تزال نقاط صغيرة من الدم .. جافة ، تبدو في يدي . أبداً تتشبث بتلك الخطوط الغائرة في راحتي .. وتحت أظافري تظهر كذلك نقاط حمراء .. صغيرة وقذرة !

لقد غمست يدي في تلك الدماء التي كانت تنبع بغزارة من تلك البقعة الغائرة في فخذي .. غمستها مرات .. لا ادري كم .. مرات عديدة ، وفي كل مرة كنت احس شيئاً طرياً وحاراً .. وفي كل مرة كنت اقرب يدي من انفي اشمها .. لا ادري لماذا كان يستحيل الى رطوبة تامة هذا الأحمر اللزج ! وفي كل مرة كنت القي قليلاً من على يدي ، لأحس هذا الشيء المالح يقرص حلقي ويزرع الظمأ في قلبي !

لقد فرحت ، فرحت عندما غمست أصابعي بدماء جرحي .. فرحت لرؤية الدم .. ولأول مرة افرح لرؤية الدم منذ قدومي الجزائر ... أتعرفين لماذا ؟

لا اعرف كم من سرير في هذه القاعة الكبيرة .. أسرة كثيرة وجرحى كثر . هناك سريران خاليان ، ولكن من الممكن ان يشغلا في اية لحظة .. غير ان الشيء الهام هو انني لا اعرف احداً هنا .. معظمهم جاؤوا من الشمال . وفي نهاية القاعة سرير يشغله جريح قيل لي انه من مرسيليا .. ولكن حتى هذا لا اعرفه ايضاً ! ولكني اتساءل احياناً .. هل من الواجب ان اعرف كل شخص من مرسيليا؟ انه تماماً كهؤلاء الذين جاؤوا من الشمال .. لا يربطني بهم غير هذه الزمالة ، مجرد جنود ، جنود فرنسيين ! ورغم تلك الاسرة الكثيرة التي تملأ القاعة ، والجنود الكثر الذين يملأون الثكنات ، فأنا أحس الضياع هنا يجتاحني بقسوة .. كل ذلك لا يمكن ان يقمع شعور الغربة في دمائي ، هذه الغربة الموحشة ، في هذا البلد الأجنبي .

لا ادري لماذا تركت مرسيليا ، او حتى لماذا اصبحت جندياً ! لكي تأكلني هذه الغربة ، هذا الضياع القاتم؟.. انت لا تحسين في مرسيليا ما احسه هنا ، كيف يتقلص العالم بسرعة أمامي ، فأغمض عيني كي لا اتابع قساوة المنظر ، وعندما افتحهما من جديد ، أفتحهما لأدرك ان العالم قد ذهب بعيداً .. كلؤلؤة حلوة تسقط من بين اصابعي ، وتغور في خليج الجزائر .. الأزرق .. العميق .. تغور إلى الابد !

هكذا ارى عالمي يبتلعه هذا الخليج الأزرق .. العميق ، دون ان يكون باستطاعتي ان اعمل شيئاً لانقاذه .. او حتى للحاق به ! وأقف وحيداً ، بلا عالم .. بلا كيان او مصير ، يملأني الخواء ، والفزع ، لمن أحيا بعد ذلك؟ إن كل شيء يمكن ان احياه له .. ذهب بعيداً ، بعيداً الى القاع !

لا يمكنني ان احبس دموعي بعد ، ولهذا ابكي بحرقة .. بحرقة طفل شاهد لعبته الوحيدة تتحطم تحت عجلات قطار .. إن الدموع تتساقط .. ليس من عيني فحسب ، بل من كل بقعة في جسدي تتساقط الدموع يا امي .. دون ان يكون باستطاعتي إيقافها . انت لا تحبين الدموع ، وخاصة (انها لا تليق برجل) كما كنت تقولين دائماً ، وانا ايضاً .. انا ايضاً كنت اكره البكاء ؛ ألا تذكرين عندما تركت مرسيليا الى هنا ، قلت لك عشية ذلك اليوم:

— انا لا اريد دموعاً .. فقط ودّعيني بابتسامة !

ولكني مع ذلك ابكي الآن .. ليس بامكانك ان تمنعي هذه الدموع من السقوط ، انها الشيء الوحيد الذي املكه اليوم .. بعد ان ذهب كل شيء ! هذه الدموع (انها لا تليق برجل) ، انها تعني الضعف والتخاذل ولكنهم — هنا — يمتصون باستمرار كل عرق دافيء فيّ .. كل عرق دافيء يمتصونه باسم فرنسا ، ليكن ذلك ، لتأخذ فرنسا كل عروقي الدافئة .. انا لن يبقى لي بعد ذلك إلا الدموع !

ولكن لماذا ارسلوني الى هنا ، الكي يبتاعوا بدمائي الجزائر ؟! بدمائي وبعالمي الذي يغور الى القاع؟ اجل يا امي هذا هو ثمن الجزائر اليوم ، كثير من الدماء ، وكثير من العوالم التي تغور الى القاع ! ولكن لماذا .. لماذا .. انا لا ادري ، هل هي قضية فرنسا ؟ ولكنها ليست قضيتي تماماً ، انني احس بعمق ان قضيتي هناك في مرسيليا .. حيث اعيش كأنسان يملأ شوارعها وشطآنها ، واترك لانسان آخر ، انسان الجزائر ، ان يملأ شواطيء الجزائر وشوارعها . كنت اعتقد ان هذه هي تضحية يجب ان نقدمها اليوم لينعم بسلامها ابناؤنا غداً ، ولكننا نذوب هنا جميعاً ، وننحدر بقوة دون ان نخلف وراءنا شيئاً .. ابناء مثلاً ! وحتى لو وجد هنالك ابناء فلن يكون بامكانهم ان يستمتعوا بهذا السلام الزائف! انهم سيعملون من جديد للمحافظة عليه ، سيظلون يعملون باستمرار لشراء الجزائر ، ان عملية الشراء هذه عملية مستمرة ابداً .. ودوماً ترافقها نفس الاشياء ... نفس الدماء الكثيرة .. ونفس العوالم الغارقة !

ان شواطيء مرسيليا رحبة ، وجميلة .. وانا يمكنني ان اعيش عليها بسلام ، ولكنهم يصرون على أن آتي الى هنا ... الى هذه الشواطيء التي تغص ابداً بجنود فرنسيين .. وبأسلحة فرنسية ! هذه الشواطيء لا يمكن ان يفكر فيها الانسان الا بالموت .. نحن نخلي شواطيء مرسيليا ونأتي لنتراكم هنا .. فنخنق الحياة هنا وهناك !

لو اننا تزوجنا — سيمون وانا ... كنت اريد اطفالا كثيرين ، قدر ما تستطيع سيمون انجابه .. ودائماً كنت اتصور كيف كنا سنجلس جميعاً على الرمال في الصيف نبني قباباً من الرمل ، هذه القباب الرملية ، لا ادري لماذا افكر بها كلما تصورت طفلاً على شاطيء ، ولكن ستظل ذكرى هذه القباب الرملية التي لم تتحقق ستظل تحمل شيئاً مراً ... شيئاً يعض قلبي بحرقة !

انا لم ادهش كثيراً لنبأ هروب سيمون ، لا ادري لماذا ؟! ولكنني منذ الفترة التي بدأت اؤمن فيها بأنهم القوا بي جوراً الى هنا .. منذ هذه

الفترة ، وانا انتظر في كل رسالة ان اسمع ان سيمون قد هربت . لقد بدأت اؤمن بانني كنت اودها ان تهرب ، بل كنت اضرع لذلك .. ان تهرب الى باريس،الى اي مكان اخر ، لتنقذ جزءاً من تلك الآمال التي كنا نضعها معاً ونخبئها بحنان ، لقد اخذتها معها بعيداً ، ولئن عاشتها بمفردها ، او تركت فيها انساناً اخر ، فهي لا يمكن ان تستحق اللوم بحال . لقد شاهدت العالم ينقلص ليذهب بعيداً والى الابد، فكان ان تركت كل شيء ، لتلحق بالعالم . انها لم تغمض عينيها كي لا تتابع قساوة المنظر .تماماً كما فعلت .ولكنها ذهبت..ذهبت كي لا تحس تلك الغربة التي احس.

ليست سيمون خائنة .. ولكن كل ما في الامر انني جبان ! كان بامكاني ان اذهب ، ان افر ، ان الحق بالعالم كما فعلت هي ، ولكنني لم افعل .. لم افعل .. اتدرين لماذا ؟ انهم لم يتركوا فيّ – يا امي – جزءاً يستطيع المقاومة .

كلما ذكرت سيمون، الآن ، تقفز الى مخيلتي صور كثيرة .. كشراء الجزائر مثلاً .. تلك الدماء .. والعوالم .. والقاع ، اتذكرين كل ذلك؟ هكذا تبدو سيمون اليوم بالنسبة اليّ ، لقد كانت هي .. والاطفال الكثيرون .. والقباب الرملية التي احبها .. كانوا جميعاً جزءاً آخر من ثمن الجزائر .. هذا الثمن الباهظ !

لا .. لا تزمي ما بين حاجبيك ، وتشهقي بخيبة امل : لقد خان قضية فرنسا !

ان كل قطرة دم تنزف مني تجف بسرعة لتقربني من الموت ، بينما اولئك الجزائريون يبذلون دماءهم في كل مرة .. في كل مرة دون ان يخافوا الموت .. اتعرفين لماذا ؟ لان هذه الدماء التي يبذلونها لن تجف ابداً .. انها تزهر باستمرار .. ولهذا هم لا يخشون الموت .

هكذا اقيس المشكلة ! واشعر اين يمكن لدمائي ان تزهر ايضاً ، وهناك تقبع قضيتي .

اتذكرين الحرب الاخيرة ، انا لا ازال اذكرها ، تماماً عندما سقطت باريس جاء مسيو لينوار ينعي اليك والدي، لقد كنت يومئذ ما ازال صغيراً ، وسمعت كل شيء ، وذهب مسيو لينوار ، وبكيت انت بحرقة ، وقلت لي بصوت تخنقه الدموع :

ـ الا تبكي يا بول .. لقد ذهب والدك الى الابد ..

ولكنني لم ابك ! كنت اشعر على الرغم من صغري .. ان هذه الدماء لا يمكن الا ان تزهر .. وهذه كانت قضيتي !

انني اذكر هنا جاك دونفيل .. دائماً اذكره كلما احسست ان هذه ليست قضيتي . انه جندي باريسي ، عرفته بمقتضى مهمتنا ، فقد كنا نقوم بالحراسة معاً ، وفي بعض الاحيان كنا نقوم بدورية صغيرة في المدينة . كان دائماً يهذي بشيء من هذا القبيل ، ويلعن نفسه كثيراً لانتسابه الى سلك الجندية ، كان دائم التذمر .. دائم الهزء بهذه القضية الشوهاء ! ربما كان يخوض نفس المعركة التي اخوضها الآن ، ربما كان يريد هو الاخر اللحاق بذلك العالم المتقلص .. لقد لحق به هو ايضاً..تماماً كما فعلت سيمون.

كنا نقوم ـ انا وجاك ـ باحدى الدوريات الصغيرة ، كان يتكلم باستمرار وبدون انقطاع ، وكان باستطاعتي ان الحظ انه يتألم ، ولكن لم اكن اتصور مطلقاً ان يقدم على امر كهذا !

كنا قد بلغنا خارج المدينة ، وكان علينا ان نقوم بدورة حولها من الخارج نصل بعدها الى الثكنة .. وازداد صوته توتراً ، واخذ يصر باسنانه على الكلمات ، وبدأ يترنح بعصبية ويرتجف .. كانت تلك هي المرة الثالثة التي تصيبه فيها مثل هذه النوبة ، واخذ يهذي بكلام مختلط « لا .. لا يمكن ان يستمر ذلك يا بول .. يجب ان اذهب .. يجب ان اعود .. انا لن ادفن بهذه الارض الغريبة » كان دائماً يخاف ان يموت ويدفن في هذه الارض الغريبة ! ولا ادري كيف حولت بصري عنه كان يبدو انه قد بدأ يهدأ .. وفي لحظة تعالى بجانبي صوت طلقتين !

كانت فوهة البندقية منغرزة في فخذه ، والدماء قد بدأت تتدفق . وقبضت على البندقية والقيت بها بعيداً وانا اصرخ من وقع المفاجأة دون ان ادري ما اقول . واطبق بيده على الجرح .. والدماء تسيل من بين اصابعه .

وعندما تكلم ثانية كان يملأ صوته الارتياح : ـ كنت مضطراً لأن افعل ذلك .. يجب ان اذهب .. ان اذهب بأي وسيلة ..

وعلقت بندقيته في كتفي ، وبقضت على ذراعه ، واخذ يسير متكئاً علي باحدى يديه ، ويده الاخرى تقبض على الجرح الذي كنت قد احكمت حوله شد حزامي منعاً للنزيف .

وجعلت طريقنا عبر المدينة. لم نصادف احداً من الجنود اثناء الطريق، فقط ثلاثة لمحتهم ينحدرون في طريق جانبي . كنا نسير قليلاً ونتوقف لحظة يلتقط خلالها انفاسه ، وفي احدى هذه الوقفات اخذ ينظر اليّ .. كنت احس نظراته القوية رغم ذلك الظلام الذي كان قد بدأ ينشره المغيب . ولمحت في عينيه شيئاً لاهباً .. وبدأ يتكلم :

ـ بول .. انت لا يمكن ان تقول لهم شيئاً في الثكنة .. ها ؟

ولم أقل شيئاً.وشعرت بيده الأخرى تقبض على كتفي وتهزني باستجداء:

ـ بول .. لا .. لا يمكن ان .. لا يمكن ..

واخذت اهدئه : ـ كلا .. كلا يا عزيزي ، لا يمكن ذلك مطلقاً .

ـ هل تقسم ؟

وفوجئت بذلك ! ونظرت الى عينيه من جديد ، كان فيهما توسل اليم : توسل أحسسته يلفحني ، وقلت :

ـ ولكنهم سوف يسألوننا على كل حال .. حقاً ، انا لا ادري ماذا اقول لهم .

ـ مجرد اشتباك مع بعض المواطنين ، هذا كل ما في الامر .

وظهر لي الامر معقولاً .. لم يكن من الممكن ان اقول لا .. وهكذا اقسمت .

وعندما بلغنا الثكنة ، اخذوا جاك للمعالجة. وقت انا بتبليغ الحادث.ولم يظهر على احد اي علامة الريبة ، رغم توقفي عدة مرات لاضطراري الى اختلاق حواش لازمة للأمر ، ولكن في الحقيقة ، لم يكن من الممكن ان يفكر احد بغير هذا في مثل هذه الظروف.

ومكث جاك اسبوعين في المستشفى ، كنت اتردد عليه خلالها كلما سنحت لي الفرصة . وفي المرة الاولى جلست على طرف السرير ، وامسك جاك بيدي يضغط عليها بضعف وفي عينيه امتنان عميق . ولمع في عينيه شيء ربما كان دموعاً .. لا ادري .. لأنني خفضت بصري في اللحظة التالية !

ونزعوا له الرصاصتين من فخذه ، ولكن الجرح ظل يأكل .. (مما قد يستدعي بتر ساقه بكاملها) .. هكذا قال لي الطبيب المختص . وخلال الفترة التالية شغلنا ببعض العمليات التفتيشية في بعض المناطق الجبلية ، وعندما عدت ، ذهبت الى المستشفى لزيارته ولكنني لم اجده ، وقيل لي انه أرسل الى باريس حيث سيظل بعض الوقت في المستشفى هناك .

وبعد مدة جاءتني رسالة منه ، لقد بتروا ساقه في المستشفى في باريس ،

الى الدم العربي ..

اهو عطر ام دم . انه يبتسمُ
يا جراحاً للعلى تنتقمُ
يا رحيقاً يا ندى يابلسمُ
يا لهيباً يتلظى أنفاً يا حممُ
ياعذارى ذاك عرس مشرق لا مأتمُ
إسمعي كيف يضج الشممُ
هبّ من غفوته المعتصمُ
انه لن يستباح الحرمُ
والردى من كل قيد ارحمُ
لهف نفسي والمنايا تزحمُ
كم شهيد وشهيد منكمُ
يا حماة القيد سقياً لكمُ

يا أحبّاي بروحي انتمُ
ثورة الحق شعاعٌ ودمُ

***

دربنا نوّر فيه الالمُ
وحنايانا عليه حوّمُ
هذه ثاراتنا تضطرمُ
ثورة الحق شعاع ودمُ
إشربي من نورها يا انجمُ
امة ثائرة بل امممُ
ارتفع يا علمُ
وانطلق يا نغمُ

دمشق — **عزيزة هارون**

ولكنني كنت أحس فرحته رغم ذلك.. فرحته بحياته التي طالما ارادها من قبل.

لا ادري حقاً لماذا رويت لك هذه الحادثة ! ربما لأبرر شيئاً ، ولكن ربما يكن هذا الشيء فهو ليس هذا الجرح الذي ربما قفز الى مخيلتك الآن والذي يناكل رغم ذلك في فخذي ايضاً .

لقد اصبت اثناء اشتباك في احد المناطق الجبلية ، ولكن من العجيب ان اكون قد أصبت في فخذي ايضاً !

واثناء العودة الى المدينة ، كنت اتمدد في احدى السيارات ويدي على فخذي المحس الدم النازف ، وفي مخيلتي يتراقص شيئان : جاك دونفيل .. وعيون صغيرة لاطفال جزائريين تبرق في الظلام !

ولكن .. انت لا تعرفين قصة هؤلاء الاطفال الجزائريين .

كانوا ستة او خمسة . وفي كل مرة اقوم فيها بالحراسة خارج الثكنة ، كنت أراهم يقفون على بعد قليل ينظرون باعجاب الى الجنود اثناء قيامهم ببعض التمرينات . في المرات الاولى كنت انتهرهم ، فيركضون الى مسافة أبعد حيث يتوقفون هناك ويتابعون فرجتهم اللذيذة . لا إذكر انني انتهرتهم مرة ثم تراكضوا دون ان يقفوا ثانية على ذلك البعد المتزايد .

ومرة انقطعوا عن المجيء بضعة ايام . فكنت اشعر وانا اقوم بالحراسة بفقدان شيء ... لو انهم يأتون اليوم .. هكذا كنت اهمس بين فترة واخرى ! لقد اعتدت ان انظر اليهم بعيون عيونهم الصغيرة التي تريد ان تخترق الحواجز لترى كل شيء عجيب ، كما اعتدت ان انتهرهم فيتراكضون الى مركزهم الآخر . كنت بحاجة ماسة كي انتهر شيئاً ما .. طفلا مثلا . طفلا يريد التطلع الى عمليات التمرين ، ويرنو إلي في كل لحظة متوقعاً سماع صوتي يعلو كي يطلق ساقيه للريح . وعندما عادوا في المرة الثانية كانوا ثلاثة فقط ، لقد استطعت ان احفظ وجوههم تماماً ، ولهذا كان باستطاعتي ان اتعرف على الأول سريعاً ، اما الآخران فكانا يأتيان هنا لأول مرة . ولهذا كان يتقدمهما وفي عينيه ثقة من يعرف كل شيء ، ومن الراجح انه كان قد اطلعهما على كل تفاصيل العملية ، فقد وقفوا في المكان المعتاد ، وكان بامكاني ان ألحظ استعدادهم التام للركض في كل لحظة وعند اول صوت .. ولكنني لم اطلق ابداً هذا الصوت !

لا ادري لماذا لم يكن باستطاعتي انتهارهم من جديد ... مع ان ذلك يكل العملية المعتادة تماماً .. ربما كنت اخشى ان يذهبوا .. دون ان يعودوا ابداً .

وابتسمت .. وحاولت ان تكون ابتسامة عريضة مطمئنة ايضاً . واستطعت ان الحظ ان ذلك قد فاجأهم ، وادرت ظهري وعدت الى السير من جديد . وعندما رجعت الى نفس النقطة الاولى ، كانت المفاجأة هذه

المرة من نصيبي .

كانوا قد اقتربوا بضع خطوات ايضاً .. وكان الثلاثة يبتسمون ! فابتسمت بدوري ، وعدت الى السير من جديد .

لم أكن اتصور ان انال ثقتهم بهذه السهولة ، ولكن تلك الخطوات القليلة التي اجتازوها الى الامام ، ثم تلك الابتسامات الثلاث .. كل هذا جعلني اشعر ان عملية نيل الثقة لم تكن ابداً من طرف واحد .. لقد كانوا هم انفسهم يحاولون ذلك ايضاً . واحسست في هذه اللحظة اننا متفاهمون تماماً .. انا وتلك العيون البراقة التي تتفرج .. والافواه الصغيرة التي تبتسم .

كان ما يزال علي ان اسير طويلاً حتى الظهر ، حيث اتخلى بعد ذلك عن الحراسة لجندي آخر . ان عملية الحراسة هذه سهلة كثيراً ومضجرة كثيراً في وقت معاً .. تصوري هذا السير المتواصل جيئة وذهاباً على خط واحد مرسوم .. كم تبعث الكآبة في نفسي .. ثم هذا المقعد الخشبي الصغير الذي اجلس عليه بين فترة واخرى ، كلما احسست التعب من السير ، ولكنني قليلاً ما اجلس ! وفي المرات القليلة الآتية ، كنت سريعاً ما اغرق في نوم كان باستطاعته ان يسبب لي الكثير من اللوم . وقطعت المسافة جيئة وذهاباً ، وتمددت خلال ذلك ان اتجاهل تلك العيون الست المعلقة فيّ باستمرار .. وفي المرة الاخيرة جلست ومددت رجلي بتراخ ، واغمضت عيني نصف اغماضة مسنداً البندقية الى جانب المقعد ... وخلال اللحظات القليلة الاتية ، كنت اتابع بعيني نصف المغمضتين الاقدام الصغيرة الحافية التي بدأت تزحف نحوي .. وفي لحظة كان الثلاثة يحيطون بي .. واخذ الاول يهزني من ذراعي وهو يضحك بصوت مسموع ، ناظراً الى رفيقه نظرات ذات معنى .. كان يجهد ليري رفيقيه الجديدين اننا متعارفان ومتفاهمان تمام التفاهم ، وانه على ثقة تامة من تلك الصداقة الصامتة في الوقت الذي كان رفيقاه يتحفزان فيه للهرب عند اقل حركة تصدر مني . وكانت فرصتي الوحيدة لاكسب ثقتهم !

قد تضحكين الآن وتتساءلين لماذا ابدي هذا الاهتمام بمجرد اطفال كهؤلاء ؟!

انا لا ادري ذلك بوضوح تام كي اشرحه ، ولكن .. ربما لانهم يحملون على جباههم بضع حبات من الرمل .. هذا الرمل الذي يمكن ان يصبح قباباً حلوة تصنعها ايد صغيرة ! وربما لانني اود ان ادخل شيئاً ما جديداً على عالمي هذا الجاف المحدد الذي يتقلص في بندقية ابداً تحفر في كتفي .. وفي خطوات متواصلة مملة على خط واحد مرسوم .

وفتحت عيني وابتسمت .. كنت اعرف ان هذا هو ما يريده تماماً . وبسرعة كان يحتل جزءا من المقعد الخشبي بجانبي ، ملوحاً بقدمين لا تبلغان لارض !

ومد يده الى صدري ، واخذ يعبث بأزرار بذلتي الصفراء المذهبة ، بينما كان الآخران قد تقدما - بعد ان زال عنهما كل شعور بالاستغراب - واخذا يمران بأصابعهما على طرف البندقية باعجاب .

وسألت الاول عن اسمه ، فاخذ يضحك بخبث وبصوت مسموع .. لقد اضحكته تلك الكلمات الفرنسية التي لم يفهمها !

وكان الآخران - على ما يبدو - مصممين على المضي في مداعبة البندقية باعجاب ، وكانت البندقية محشوة ، ولهذا كان من الممكن ان تنطلق في اية لحظة .. وتناولتها معيداً اياها الى كتفي وعدت الى السير من جديد .

وفي اليوم التالي كنت اقوم بالحراسة ، وكنت اتابع سيري كالمعتاد عندما احسست بأيد تتكمش فيّ من الخلف .. انها ايد صغيرة .. لقد استطعت ان اشعر بذلك ، وعندما استدرت .. كانوا ثلاثتهم .. وكل منهم يحمل في احدى يديه ثلاث حبات من البلح الاسود الناضج قدموها الي في وقت واحد .

لا ادري كنه هذا الاحساس الذي اعتراني في تلك اللحظة .. كنت احس بفرح طاغ .. وكنت اريد ان ابكي .. ان ابكي بغزارة ... كان شيئاً مفاجئاً لي تماماً .. انا لم يكن بامكاني ابداً ان اطور شعور الصداقة بيننا الى هذا الحد !

تصوري كيف عجزت تلك الشكنات الفرنسية الكثيرة .. وتلك الدبابات الثقيلة المتوحشة - كيف عجزت عن ان تقتلع من هذه الهياكل الصغيرة احساسها الفطري بانسانيتها ..

هذه الحبات من البلح الاسود الناضج سوف تعيش في مخيلتي الى الابد، سوف تعيش مع اولئك الاطفال الكثيرين على شواطيء مرسيليا ، ومع القباب الرملية الحلوة .. ومع كل الاشياء العزيزة التي احبها .. ولكنها ستظل الشيء الوحيد الذي كلما ذكرته .. احسست بشيء قارس (يحرحر) انفي . وامتلأت عيناي بالدموع ! وكان علي ان اقوم بعمل مماثل ، ان اقدم شيئاً ما مقابل ذلك .. وفي اليوم التالي كنت قد تمكنت من توفير ثلاث قطع متوسطة من الخبز .. وكان يفعمني شعور عميق بالارتياح بينما عيناي تتابعان الافواه الثلاثة وهي تقضم الخبز بلذة !

وفي احدى الامسيات ، كنت برفقة جندي آخر نعبر احد شوارع الجزائر ، كان لدينا ثلاث ساعات يمكننا ان نقضيها كيف نشاء ... لا ادري ماذا يسمي ضابطي الفرنسي هذه الساعات الثلاث .. هل هي إجازة .. أم ساعات فراغ .. أم وقت للراحة ؟! مهما يكن ، فنحن هنا لا نمنح مثل هذه الساعات الا في القليل .

كنا نفصد حانة من تلك الحانات الاوروبية .. ولكن حتى في وقت اللهو ، لا يمكننا هنا ان نتخلى عن تلك البندقية اللعينة التي تحفر في كتفي باستمرار . وقضينا هناك ساعتين في شرب متصل .. كان كل شيء في الحانة يبعث على الضيق ، وكل ما يمكن ان يطمع فيه جنود مثلنا ينحصر في تلك الكؤوس المتلاحقة التي تشمرني بالظمأ ، وبلحظات قليلة مع امرأة مجهولة تهب تلك اللذة المضنية .. ليجدوا انفسهم من جديد يعبرون الشارع بخطوات متثاقلة في طريق العودة !

وهكذا وجدنا نفسينا في الطريق .. من جديد . كان النور ينبعث من تلك المصابيح المعلقة ، وينتشر في الشارع باهتاً كئيباً يبعث في نفسي الوحشة .. وعبر الشارع اثنان من الجزائريين ، وكانا يرتديان ذلك اللباس الابيض الطويل ، ان له هنا في الجزائر اسماً خاصاً ، وان كنت لا اعرف ما هو .. هذا اللباس الابيض الطويل ربما كان افضل من تلك البزة التي تغلفني باحكام .. ربما ، فانا لم البسه من قبل ابداً .

ومن زقاق طويل ينفتح على الشارع ، برز رجل آخر ! كان يرتدي نفس اللباس الابيض الطويل ، وكان يتطلع باهتمام كأنه يبحث عن شيء . وعلا بكاء طفل من نافذة ما ، وادرت وجهي افتش عن هذه النافذة التي ينبعث منها الصوت .. كنت ابحث عن اي شيء فانه يمكن ان ينسيني كل ما حولي . وكان ذلك الرجل الذي خرج من الزقاق قد اصبح بمحاذاتنا

... لا اعلم اي شيء كان يدور بذهن رفيقي عن هذا الجزائري ، ولكن من المؤكد انه كان يختلف تماماً عما كان يجول بذهني ! ورأيت رفيقي يمسك بمندقيته ويهوي بعقبها على كتف الجزائري ، وتراجع الاخير مبهوتاً الى جانب الشارع .. وسرنا خطوات قليلة .. وصرخ رفيقي فجأة ، كان حجر كبير قد اصابه في مؤخرة رأسه .. وبدأ الدم يسيل .. والتفتنا الى الخلف .. كان ذلك القميص الابيض يركض بسرعة ويغيب في ذلك الزقاق الطويل .. لم يكن هناك مجال لعمل شيء آخر .. واندفعنا وراءه .

وبدأت اطلق النار . كان الزقاق طويلا .. والقميص الابيض الطويل يستمر في الركض ، ولكن كنت واثقاً من انه سوف يتوقف اخيراً . فتلك الازقة الجزائرية الطويلة دائماً تنغلق في النهاية !

وكان رفيقي يركض بجانبي ، لم يكن بأمكانه ان يستعمل بندقيته .. اذ كانت يده الاخرى تضغط بمنديل على رأسه المشجوج . وعلمت صرخة فعلمت انه اصيب ، ولن يكون بمقدوره ان يستمر ، وفي احدى العطفات اختفى ذلك القميص الابيض الذي يركض ... ولم اعد ارى شيئاً ـ من المؤكد انه قد دخل واحداً من هذه البيوت القريبة .. لم يكن من الممكن ان اتردد .. ودخلنا البيت الاول .. البيت الوحيد الذي لم يكن مقفل الباب .

كان صحن الدار يغرق في ظلام راعش .. فشعرت بانكماش ، وبشيء كئيب يلفني .. وقصدت الغرفة التي ينبعث منها ضوء ورفيقي من ورائي ، ودفعت الباب بعنف .. ولم افاجأ عند رؤيته .. كأنني كنت اعرف انه هنا .. كان ممدداً على وجهه في وسط الغرفة .. بقميصه الابيض الطويل .. والدماء تتدفق من ظهره ! وعند رأسه جلست امرأة كان في يدها خرقة ملوثة بالدم .. وانتصبت واقفة عندما دخلنا .

كنت اريد ان افعل شيئاً ، اجل .. لماذا جئت إذن .. ولماذا ركضت خلال ذلك الزقاق الطويل المظلم ؟.

ولكن هذا المعنى .. هذا المعنى في عيني تلك المرأة .. استطاع ان يشعرني انني اعجز من ان افعل شيئاً .. ولا ادري كيف تلاشت بسرعة جميع الاسباب التي كانت تجعلني منذ لحظة اركض خلال ذلك الزقاق .. والتي كانت تبرر وجودي في الجزائر ، وفي هذه الغرفة بالذات من الجزائر !

وانتظرت من رفيقي ان يقوم بعمل ما .. ان يقول شيئاً .. ولكنه لم يفعل ... ربما كان ينتظر مني هو ايضاً عمل شيء ، لم يكن بامكاني ان استدير لاواجهه ، وظلت اسمع تنفسه السريع المنقطع من ورائي ... واخذ النور الباهت يرتجف ، وحولت بصري الى المصباح الصغير الذي كان يقبع في احدى الزوايا ، وبجانب ذبالة المصباح الراجفة كانت تلمع عيون اربع لطفلين كادا يلتصقان رعباً بالجدار ! وخرجت بسرعة .. وعرفت من وقع حذائه انه يتبعني .. وغرقنا من جديد في ظلام الزقاق وبدأنا نسير في صمت .

كان شيء كالحسرة قد بدأ يأكلني .. يأكلني باستمرار .. لم يكن من الممكن ان ابعد ابداً تلك العيون .. تلك العيون الاربع التي تلمع من الخوف .. كانت تقف امامي بصمود ، ولكنها لم تكن تقف وحدها .. ابداً لم تكن تقف وحدها يا امي ، كانت مع ايد صغيرة ثلاث تحمل حبات من البلح الاسود .. وثلاثة افواه تقضم الخبز بلذة !

لقد احسست في تلك الساعة انني خنت كل شيء .. كل يد صغيرة تحمل البلح .. وكل فم صغير يقضم الخبز . وتصورت ـ يا امي ـ كل اطفال مرسيليا الذين يمكن ان يزينوا شواطئها بقبابهم الرملية الحلوة .. تصورتهم جميعاً يلتصقون رعباً بجدار ما وعيونهم الصغيرة تلتمع على ضوء ذبالة راجفة !

ولأول مرة احس بعمق .. إن هذه العيون الملتمعة بانكسار على ضوء ذباله شاحبة .. هذه العيون .. انها بحاجة الى السلام .. بحاجة الى ..

ـ ألا ترى انه كان علينا ان نقبض عليه ؟

وانتزعني فجأة من عالمي هذا ، وقلت :

ـ ماذا ؟.. أما رأيت ؟.. انه يموت ..

ولم يتكلم .. كان قد اقتنع بذلك على ما يظهر !

ولكن .. ابداً يا امي .. ابداً ليس لانه يموت انا لم اقبض عليه .. هذا القميص الابيض الطويل الذي ينبثق الدم من ظهره .. لا .. ليس لذلك .. ليس لذلك !

لم يعد بامكاني ان احتمل رؤية تلك الظهور العارية السمراء تدمى من الضرب ، او اتابع منظر هؤلاء الاعراب وهم يهتزون بشدة .. تحت وطأة التيار الكهربائي !.. لقد سئمت كل ذلك .. سئمت كل ذلك يا امي .

واثناء عودتي الى المدينة إثر اشتباك في احد المعاقل الجبلية ، كنت امتد في احدى السيارات ، ويدي على فخذي .. المحس الدم الدافق ، وفي مخيلتي يبرق شيئان : جاك دونفيل .. وعيون جزائرية صغيرة تبرق في الظلام .. ولاجل هذه العيون .. لاجل هذه العيون يا امي فرحت يومها لرؤية الدم .. ولأول مرة افرح لرؤيتي الدم .. منذ قدومي الجزائر !

كنت اود أن أكتب اليك لأخبرك إنني سأكون في مرسيليا خلال الاسابيع الثلاثة القادمة .. ولكن لا أدري لماذا حكيت لك كل هذا .. حقاً ، لا ادري لماذا !.. ربما لأن هذا الذي سوف يصل مرسيليا خلال الاسابيع الثلاثة القادمة .. ربما كان ينغرس تحت ابطه .. عكاز يقرع الارض برتة موحشة .. وعندها لن أقول لك : « انا لا أحب الدموع .. فقط استقبلني بابتسامة ! » .. لا .. لن اقول لك ذلك .. قد أكون انا بحاجة إلى الدموع .. الدموع التي احبها الآن !

ولدك : بول

طرطوس — عبدالله يونس

صدر حديثاً

سبل ومناهج

احدث كتب النقادة الكبير

مارون عبود

منشورات دار الثقافة